تسريح الابصار

في ما يحتوي لبنان من الآثار

للاب هنري لامنس اليسوعيّ (تابع لما سبق)

في لغات لبنان القديمة

قد استدلَّ القارئ من الابحاث السابقة (١ ان لبنان مع ما طرأ عليهِ من تقلُّبات الاحوال وتعاقُب الامم في سكناه لم يزل مقاماً لشعب اصليّ كان ساميًّا يغلب عليهِ العُنصر الكنعانيّ والآرامي. ولنا في درس اللغات المستعملة في لبنان ما يؤيد هذه النتيجة فانَّ التاريخ والبحث اللغويّ يثبتان صريحًا انَّ اللغة الشائعة في لبنان كانت ابدًا لهجةً ساميَّة

ولنا في اكتشاف مراسلات تلّ العمارنة التي وصفناها سابقًا (٢ ما يرقّي حجّتنا من هذا القبيل الى القرن الخامس عشر قبل المسيح. فانَّ في هذه المكاتبات عدَّة تقارير ارسلها ولاة صيداء وجبيل وبيروت الذين كان لبنان تحت حكمهم الى فراعنة مصر وكلها باللغة البابليَّة التي كان ينطق بها هؤلاء الامراء وعمّالهم اجمعون. وهو لعمري امرٌ ذو بال يؤخذ منهُ انَّ اللغة الاشوريَّة كانت شائعة بين اهل لبنان ان لم تكن لغتهم الوحيدة. فيسوغ اذن القول بانَّ اوَّل لغةٍ شهد التاريخ على وجودها في لبنان انَّما كانت لغةً ساميَّة اعني البابليَّة. وقد حاول المقتطف (١٩٠٣. ص ١٧٥) في وصفه لكتاب تاريخ بيروت ان ينكر ذلك حيث قال: « انَّ استعمال اللغة الاشوريَّة في المكاتبات السياسيَّة والتجاريَّة لا يكفي دليلًا . . . على انَّ اللسان الاشوريّ كان شائعاً في ظهراني الأمّة الفينيقيَّة » الّا انَّ في قولهِ لشططاً ولو تحقَّق نفوذ الأمّة البابليَّة في بلاد الشام منذ ثلاثة آلاف سنة قبل المسيح لما جحد ذلك (٣ والآثار

---

١) راجع الفصل المنون « الامم البائدة في لبنان » وفصل « انتشار الامّة المارونية » الخ

٢) راجع مقالتنا « احوال لبنان ومراسلات تلّ العارنة » في المشرق (٣ : ٧٨٥)

٣) راجع المقالات الحسنة التي كتبها في هذا الصدد حضرة الاب دي لاتر اليسوعي (P. Delattre : *Le pays de Chanaan, province de l'ancien empire égyptien*)

المنبنة على مكان البابليين وكلمتهم الراجحة في هذه البلاد لعديدة حتى انَّ كثيرين من العلماء المبرّزين كفنكلر (١ وغيره يزعمون انّ ملوك بابل استولوا على الشام في ذلك العهد العهيد وانَّ القبائل البابليَّة التي كانت على ضفَّة نهري الفرات ودجلة امتدَّت وانتشرت الى سواحل البحر المتوسّط. وهو رأي راجح كان يجيز لنا بان ننظم البابليين بين امم لبنان البائدة لولا رغبتنا في اقتصار الابحاث. وما لا يُنكر من آثار المعاملات بين بابل ولبنان الموادُّ البنائيَّة التي وجدت في اخربة بابل ممَّا نُقل من لبنان كالارز والرخام الابيض والحجارة. أفيُستَغرب بعد ذلك كون اللغة البابليَّة انتشرت في ضواحي لبنان

والظاهر ان ملك البابليين في الشام امتدّ الى نحو القرن الرابع عشر قبل المسيح ومن تبصَّر في مكاتبات تلّ العمارنة وجد فيها الفاظاً وتعابير من اللغة الكنعانيَّة وهذا دليل على انَّ مستعمرات من الفينيقيين والكنعانيين استوطنوا قبل ذاك العهد سواحل الشام ولا يلبث الاراميُّون أن يتعقَّبوا آثارهم ويجتمعوا بهم (٢

واعلم ان اللغة الكنعانيَّة (التي تشمل العبرانيَّة والفينيقيَّة) واللغة الآراميَّة متجاورتان حتى تغلَّبت الآراميَّة وصار لها السَّبق فكادت تكون هي اللغة الوحيدة بعد جلاء بابل على ان بعض معاملات لبنان لا سيَّما ما كان منها مجاورًا للمراكز الفينيقيَّة الكبرى ثبتت مدَّة بعد ذلك على استعمال اللغة الفينيقيَّة

فمن ثم لا نشطُّ اذا قلنا انَّ اللغة الآراميَّة ملكت دون منازع في لبنان مدَّة نيّف والف سنة. قال المؤرخ مُمسن الشهير في تاريخ الشام على عهد الفتح الرومانيّ « انَّ لبنان بحصر الكلام لم يغيّر قطّ عنصرهُ (٣ » اعني انهُ بقي آراميًّا جنساً ولغةً الى نحو القرن الرابع عشر من تاريخ الميلاد

ولمَّا صار الامر الى الفرس بعد البابليين بقيت السيطرة للُّغة الاراميَّة وكان ملوكها يتَّخذون هذه اللغة كاللغة الرسميَّة ليس فقط في بلادهم لكن ايضاً في الاقطار الخاضعة

---

١) راجع كتابهُ الاخير H. Winckler : *Kleinschriften und das alte Testament*, 1903

٢) راجع فنكلر Winckler : *Die Völker Vorderasiens*

٣) راجع تاريخهُ (Röm. Gesch., V, *418*)

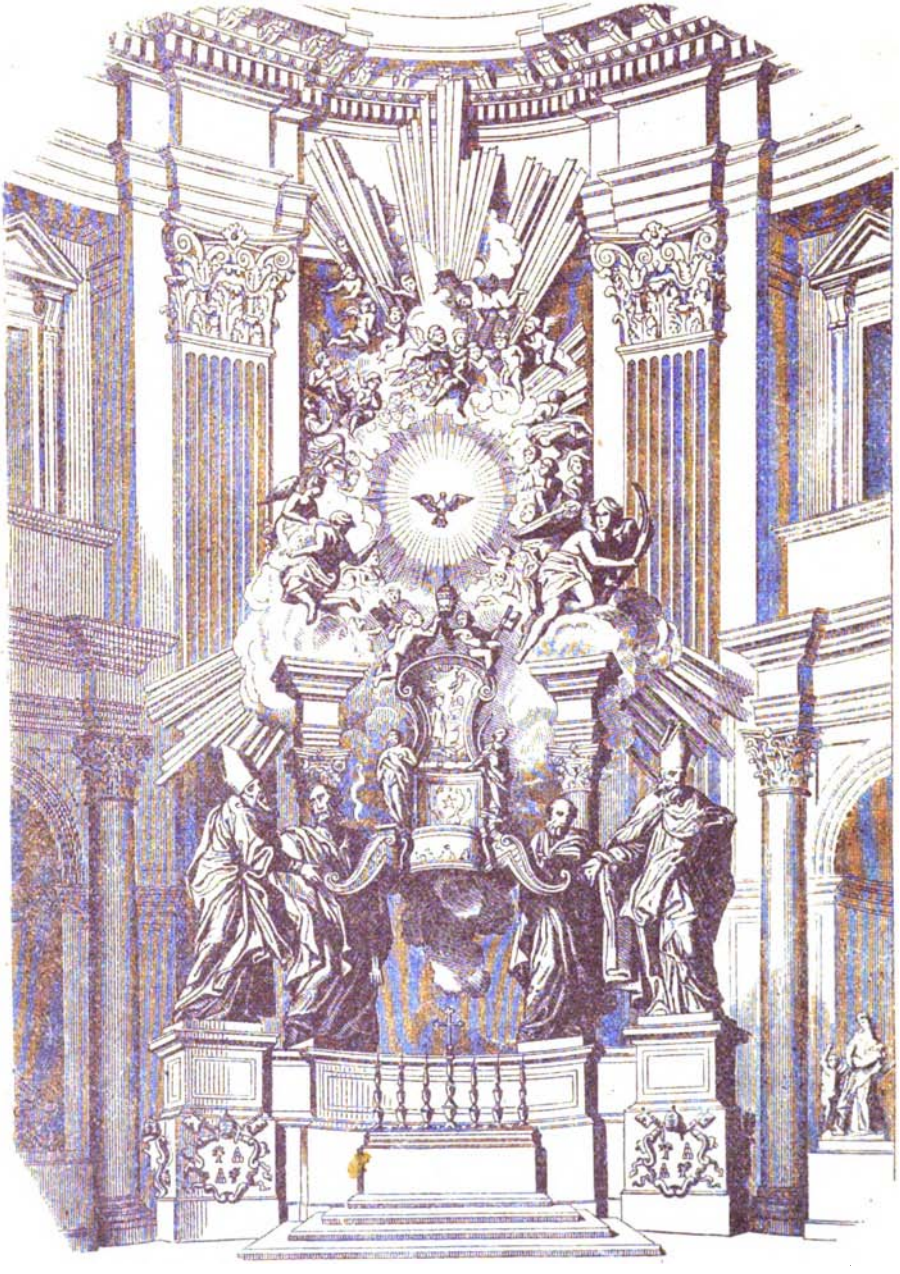

٢ كرسيّ مار بطرس الرسولي

لهم كمصر وآسية الصغرى. والاكتشافات الأثرية في مصر تؤيد ذلك فانَّ العلماء وجدوا عدَّة كتابات اصدرها ولاة الفرس باللغة الآرامية. وكذا فعل من بعدهم ملوك بني ساسان فانَّ رسائلهم كانت مكتوبة باللغة السريانيَّة (١

اما السلوقيُّون فانّ نفوذهم في لبنان كان ضعيفاً لاسيَّما من حيث اللغة فان اللبنانيين داوموا على استعمال اللغة الآرامية ممزوجةً باللهجة الفينيقيَّة. ومن عجيب الامور انَّ انتشار لغة الآراميين بلغ على عهد السلوقيين مبلغاً عظيماً فاضحت اللغة السائدة في كل آسيَّة الساميَّة اعني في سوريَّة وما بين النهرين وبلاد الكلدان والعراق وجزيرة العرب (٢ الَّا انَّ اللغة الرسميَّة بين عمَّال الدولة ولغة العلماء كانت اليونانيَّة في كثير من تلك البلاد دون ان تشيع في عامَّتها (٣

ثم تولَّى الايطوريُّون على لبنان (٤ فلم يغيّروا شيئاً من لغتهِ وكان الايطوريُّون عرباً واصلهم من حوران من الجهات المجاورة لجبل حرمون. ومع كون المؤرخين لم يصرّحوا بأيَّة لغةٍ تكلَّمت قبائلهم لا نشكّ في انَّ العربيَّة او الآراميَّة كانت لغتهم الخاصَّة كما يُستدل على ذلك من اسمائهم وهي عربيَّة او آراميَّة

وان سلَّمنا انهم تكلَّموا بالعربيَّة لا نرى بُدًّا من القول بأنهم اتَّخذوا الآراميَّة كلغة معاملاتهم. وذلك لانَّ الطرق التجاريَّة بسبب الحروب التي وقعت بين الملوك السلوقيين وملوك مصر اللاغيّين كانت تحوَّلت الى جهات جزيرة العرب بعد مرورها سابقًا في سوريَّة الشماليَّة وسوريَّة الوسطى فصار العرب وسطاً لهذه التجارة الواسعة. ولمَّا لم يكن للعرب وقتئذٍ كتابة خاصَّة اضطرَّهم الامر ان يتَّخذوا اللغة والكتابة الآراميَّة الشائعة في حدود بلادهم بين مجاوريهم الآراميين

اما النَّبط وهم من اقارب الايطوريين وجيرتهم فانَّ لغتهم النبطيَّة لم تكن سوى لهجة آرامية. وامتدَّت اللغة الآراميَّة في شمالي جزيرة العرب الى حدود الحجاز وذلك في القرون الاولى من تاريخ الميلاد الى القرن السابع منهُ. والادلَّة على ذلك كثيرة فان

---

١) راجع مقالة دي كاترمار عن النبط Quatremère : *Nabatéens, 137.*

٢) راجع المجلة الالمانيَّة ZDMG, *1855* p. *333.*

٣) راجع مقالة الدكتور سندا عن الاراميين Sanda : *Die Aramaer 1, 23 etc.*

٤) راجع المشرق (٥ : ٨٢٤)

الكتابات التي وجدت في كل تلك الانحاء انّما هي بالآراميّة ليست بالعربيّة (١

وما قلناهُ عن الشام وجزيرة العرب يصحُّ ايضاً عن شبه جزيرة سينا وفيها كتابات آراميّة لا تُحصى ابقاها لنا عرب تلك الجهات

فمن ثم نصادق تماماً على قول العلّامة نلدكه وقولُهُ حجّة في زماننا عند العلماء: « قد تناوبت في لبنان هذه اللغات الثلاث اعني الكنعانيّة ثم الآراميّة ثم العربيّة ». وكان يمكن هذا المستشرق الشهير ان يقدّم على هذه اللغات اللغة البابليّة الّا انهُ لمّا كتب هذه العبارة لم تُكتشف بعدُ مراسلات تلّ العمارنة. امّا اللغة الفينيقيّة فانّ الآراميّة قامت مقامها في لبنان كما في سوريّة كلها في قرون النصرانيّة الاولى (٢

امّا اللغات الاخرى غير الساميّة فانها لم تَفُز قطّ بالسيطرة في لبنان. واذا خصصنا بالنظر اللغة اليونانيّة وجدنا انّ اللبنانيين لم يتكلموا بها مطلقاً. وقد بيّنّا في ما سبق ما معنى الكتابات اليونانيّة التي وُجدت في لبنان (راجع المشرق ٥: ٨٠٥) واثبتنا ان وجودها ليس بدليل على شيوع هذه اللغة بين العامّة كما انّ وجود الكتابات اللاتينيّة المتعدّدة فيهِ لا يدلُّ على انّ اهل لبنان تكلّموا بهذه اللغة. وعندنا انّ هذه الكتابات لم يفهمها غير العمّال الذين آمروا بصنعها. ولا نستثني من هذا الحكم الصنّاع الذين حفروها فانّهم كانوا ينقلونها نقلاً ويصوّرونها دون ان يقفوا على فحواها

وقد زادت اللغة الآرامية شأناً بدخول المارنة في لبنان فاضحت في أظهرهم اللغة الوحيدة مدّة اجيال متوالية. وتشهد على ذلك اعلام قرى لبنان التي هي في الغالب مشتقّة من اصل سرياني كما بيّنّا ذلك سابقاً وسيأتي بيانهُ بنوع اجلى

ولمّا ظهر المسلمون واستولوا على سواحل الشام اخذت العربيّة تنتشر شيئاً فشيئاً

---

١) راجع مقالة دي كاتر مار في النبط (١٢٣ و١٢٤). وقال المسعوديّ في كتاب التنبيه (ص ٧٩): « وكانت بلاد العرب اليوم وبرّها ومدرها اليمن وتهامة والحجاز واليمامة والعروض والبحرين والشحر وحضرموت وعمان وبرّها الذي يلي العراق وبرّها الذي يلي الشام. وهذه الجزيرة كلّها... لسانها واحد سريانيّ ». راجع ايضاً مقالات نلدكه ZDMG, 1881,122 ومقالات فنكلر (H. Winckler: *Mitteil. vorderas. Gesch. 1901;* 130) وكرّاسة فيليب برجه (L'Arabie avant Mahomet, 8 p. 9)

٢) راجع Ad, Harnack: *Mission u. Ausbreit d. Christentums*, p 730

في جهات لبنان. وساعد على انتشارها ايضاً دخول الايطوريين كما سبق (المشرق ٥ : ٨٢٤) ثم دخول المتاولة والنصيريين من بعدهم (١ الّا ان اللغة الآراميّة دافعت عن حقوقها مدافعة جيّدة حتى ان ابا الفرج ابن العبري (٢ كان يعتبر في القرن الثالث عشر السريانيّة كلغة اهل لبنان. الّا ان لغة العرب لم تزل في نموّ وانتشار حتى غلبت السريانيّة شقيقتها في القرن الخامس عشر لكنّ هذه لم تتوارَ بالتمام الّا تدريجاً وكان اهل بعض القرى الداخليّة كبشراي وحصرون وجيرتهما يتكلّمون بها حتى في القرن السابع عشر(٣

وبقي من آثار السريانيّة بعد خمولها انّ كثيرين اتّخذوها لكتابة المؤلّفات العربيّة كما يظهر من كثرة الكتب المخطوطة بالكرشوني. هذا فضلاً عن عدّة الفاظ وتعابير سريانيّة باقية في لهجة اللبنانيين (٤ تنبئ بما كان من السيطرة للغة الآراميين في لبنان بل قُل في اكثر اقطار المعمور. كيف لا ومن اقدم لهجاتها اللغة الاشوريّة التي وُجد من آثارها كتابات راقية الى ٤٠٠٠ سنة قبل المسيح في اكثر اقطار آسيّة الغربيّة واضحت هي مدّة اعصار عديدة حتى بعد القرون المتوسّطة لغة علماء الشرق كما كانت اللاتينيّة لغة علماء الغرب وكان المسلمون ايضاً يدرسونها لكثرة فوائدها (٥. وقد كتب بها الارمن مدّةً قبل انتشار الارمنيّة وحروفها. وقد بلغ امتداد هذه اللغة الى اقاصي الشرق في الصين شمالاً وفي الاقطار الهنديّة جنوباً كما انّها بلغت جنادل النيل. فلا نظنّ انّ لغةً أخرى حتى ولا اليونانيّة جارت السريانيّة في اتساعها اللهمّ الّا الانكليزيّة في عهدنا

فترى شطوط القائلين بانّ اللغة الآراميّة كانت لغةً خاملة بربريّة. وقد فنّد المشرق زعم الذين نسبوا الى اوريجانس مثل هذا القول. والارجح ان اوريجانس نفسهُ كان يعرف هذه اللغة ويقتبس من انوارها. وكذلك اولئك الرجال العظام الذين شرّفوا الشرق بعلومهم كاوسابيوس القيصري وتوادوريطس ويوحنّا الدمشقي وغيرهم. وفي ما سبق كفاية لتعريف شرف السريانيّة واتساع نطاقها في العالم (ستأتي البقيّة)

---

١) راجع مقالتنا الافرنسيّة عن النصيريّة في لبنان (ROC, 1902)
٢) راجع تاريخ مختصر الدول (ص ١٨)
٣) راجع مقالتنا « فرا غريفون » في السنة الاولى من المشرق
٤) راجع مقالة الاب پاريزو في المجلّة الاسيويّة الباريسيّة (١٨٩٨ ص ٢٨٦)
٥) فيها (ص ٢٤١)